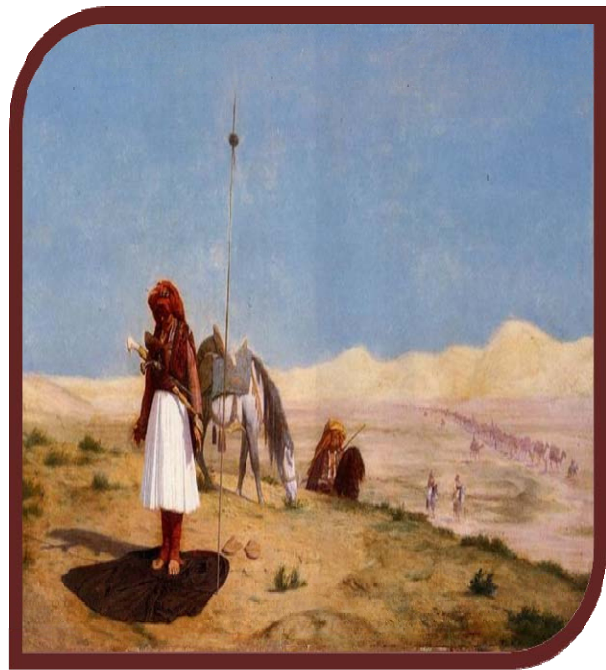


الروابط التجارية بين شمال وجنوب الصحراء الكبرى من خلال المصادر العربية والرحالة الأوربيين بين القرنين (١٥ – ١٩م)



عطية عبد الكامل

أستاذ مساعد الدراسات الإفريقية
قسم التاريخ – جامعة الوادي
الجمهورية الجزائرية

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

عطية عبد الكامل، الروابط التجارية بين شمال وجنوب الصحراء الكبرى من خلال المصادر العربية والرحالة الأوربيين بين القرنين (١٥ – ١٩م).- دورية كان التاريخية.- العدد الثالث والعشرون؛ مارس ٢٠١٤. ص ٥١ – ٦١.

www.kanhistorique.org

كان التاريخية: رقمية الموطن .. عربية الهوية .. عالمية الأداء

مُلَخَّصْ

لعبت الصحراء الإفريقية الكبرى في تاريخ إفريقيا جنوب الصحراء ما لم يلعبه المحيط الأطلسي، من الأدوار الحضارية الهامة فقد كانت مسارب الصحراء إلى غرب إفريقيا خلال العصر الوسيط وبداية العصر الحديث بمثابة مسالك تعبر من خلالها حضارة البحر الأبيض المتوسط والحضارة الإسلامية بعد ذلك إلى إفريقيا جنوب الصحراء عمومًا وإفريقيا الغربية بصورة أخص، والحقيقة أن الحواضر السودانية كانت على اتصال مستمر مع الحواضر الشمالية ولم تكن الصحراء عائق يحول الاتصال بين الفضائين وكانت حركة القوافل التجارية المحملة بمختلف البضائع القادمة من الشمال مظهرًا من مظاهر هذا التواصل، فقد شهدت المنطقتين بروز مراكز تجارية تعدت شهرتها حدود المنطقة منها مثلاً: تمبكتو، غاو، جني، تادمكة، توات، ورجلان...الخ. وقد بلغت حركة القوافل التجارية أوج قوتها على أيام الأسقيين وحافظت حكومتهم على التقليد السوداني القديم منذ أيام مملكة غانا في توفير الأمن والاحتفاء بالتجار، ورغم أن بعض المسالك شهدت بعض الاضطرابات، إلا أن ذلك لم يوقف مرور حركة القوافل التجارية القادمة من الشمال إلى أسواق الجنوب محملة بمختلف المنتجات المتوسطية ليتم مقايضتها بالسلع السودانية، ورافق هذه الحركة انتشار الإسلام والثقافة العربية الإسلامية في المنطقة فيما بعد بفضل جهود التجار والدعاة وأصحاب الطرق الصوفية.

مُقَدِّمَة

لعبت الصحراء الإفريقية الكبرى في تاريخ إفريقيا الشمالية والغربية ما لم يلعبه المحيط الأطلسي، من الأدوار الحضارية العامة ،فقد كانت مسارب الصحراء إلى السودان الغربي خلال العصر الوسيط بمثابة مسالك تعبر من خلالها حضارة البحر الأبيض المتوسط، والحضارة الإسلامية بعد ذلك إلى السودان الغربي، وقد استمر ذلك خلال فترة طويلة من العصور الحديثة.[١] وفي خضم عملية التبادل التجاري بين سكان الصحراء، وجنوبها ظهرت مراكز تجارية مشهورة عَرفت ارتباطًا وثيقًا بالأمصار الكبرى واتصلت بطرق التجارة العالمية البرية، والبحرية، فكانت صلات هذه المراكز التجارية بموانئ سواحل البحر الأبيض المتوسط، والبحر الأحمر والمحيط الهندي.[٢]

أولاً: أهم المراكز التجارية شمال وجنوب الصحراء الكبرى

١/١- المراكز الشمالية:

غدامس: أحد المراكز التجارية الهامة في حياة التجارة بين الشمال الإفريقي والجنوب، تقع جنوب غرب مدينة طرابلس الليبية.[٣] قال عنها الحسن الوزان: "أنها منطقة كبيرة مسكونة، حيث القصور العديدة، والقرى المأهولة، على بعد نحو ثلاثمائة ميل من البحر المتوسط، سكانها أغنياء لهم بساتين نخل وأموال لأنهم يتجرون مع بلاد السودان".[٤] ترتبط غدامس تجاريًا بمدينة

علمية. عالمية. مُحكمة. ربع سنوية

ISSN: 2090 – 0449

تمبكتو، وغاو، وجني، واقادز، وتادمكة، ومع قرى سودانية أخرى، فصارت محطة مهمة في بداية الطريق عبر المنطقة الوسطى من الصحراء الكبرى إلى السودان الغربي، الحي الغدامسي في مدينة تنبكت من أرقى الأحياء- دلالة على التجار الغدامسين-.[٥] نشطت القوافل التجارية الغدامسية خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي، وربطت أسواق السودان الأوسط بميناء طرابلس، ومن أهم هذه الأسواق نذكر: (كوكة، دكوة، زندر، أنقورنو، كانو، وسوكوتو، وكاتسينا) وتمتد هذه العلاقة التجارية من كانو نحو الشمال في اتجاه طرابلس عبر غات، ومرزوق وغدامس.[٦]

فزان: مجموعة من الواحات النخيل تقع في الصحراء الليبية، كانت أحد أهم المحطات التجارية، التي يتوقف عندها التجار للراحة، وتبادل البضائع القادمة من أسواق السودان إلى المراكز الشمالية، كطرابلس، زويلة، مصر، فجل منتجات البحر الأبيض المتوسط، والشمال الإفريقي من سلع، ومواد زراعية، كانت ترسل إلى السودان عبر فزان، يمر بها الطريق التجاري الرابط بين مصر وتمبكتو وذلك عن طريق أوجلة، وجالو، وغات يقول عنها الحسن الوزان: "منطقة كبيرة جدا مسكونة فيها قصور عظيمة، وقرى كبيرة، كلها عامرة بناس أغنياء يملكون النخيل والأموال، ويجاورون كل من أقدز وصحراء ليبيا المتاخمة لمصر."[٧]

لقد سهل هذا الإقليم على القوافل التجارية عملية الاتصال والتبادل التجاري، وأحكم الصلة بين الرحلات الوافدة من الشمال إلى الجنوب، كما قام سكان واحات هذا الإقليم بدور إيجابي في استقبال القوافل، وإرشادها عند المغادرة، وتوفير حاجاتها من المياه وغيرها من الخدمات الضرورية.[٨]

ورجلان: تشتهر بكثرة النخيل والعبيد وهي من المحطات التجارية الهامة في الجنوب الشرقي الجزائري حاليًا، تتميز بوفرة مياها الباطنية، والتي تتدفق بكميات كبيرة عند حفرها- تم استغلال هذه المياه في سقي القوافل المارة بالمنطقة كالقوافل التجارية القادمة من القيروان والجنوب التونسي اتجاه المراكز السودانية-.[٩] اكتسبت ورجلان شهرتها الكبيرة لارتباطاتها التجارية الواسعة، وكونها المركز التجاري الأول لتجارة الرستميين، قال عنها الحسن الوزان: "مدينة أزلية بناها النوميديون في صحراء نوميدية، لها صور من الأجر البني ودور جميلة، وحولها نخيل كثير، ويوجد في ضواحيها عدة قصور وعدد لا يحصى من القرى، الصناع فيها كثيرون، وسكانها أغنياء جدا لأنهم في اتصال مع مملكة أقدز منهم عدد كبير من التجار الأجانب الغرباء عن البلد، يحملون لها منتجات بلاد البربر ويستبدلونها بما يأتي به التجار من بلاد السودان."[١٠] وازدادت أهمية هذا المركز التجاري الصحراوي بعد سقوط أدغست[١١] على يد المرابطين.[١٢] وكانت أهم المنتجات التي تحملها القوافل المنطلقة من ورجلان إلى بلاد السودان الغربي هي الأكسية القطنية، والكتانية، وثياب الصوف، والعمائم والمآزر، وأصناف من الزجاج، كخرز الزجاج الأزرق، والأصداف، والأحجار وأنواع الأفاويه، والعطر المأخوذ من عقد خشب الصنوبر كما تحمل هذه القوافل النحاس الأحمر، والملون، ومنتجاته من الأساور، والخواتم، والحلق، وأيضًا آلات الحديد المصنوع، والفخار، والخزف ذي البريق المعدني والملح.[١٣] وكانت هذه القوافل تعود محملة من السودان بالذهب الخام والعاج، وريش النعام، وجلود الحيوانات، وقد تخصص أهل ورجلان في قيادة هذه القوافل التجارية، فكان منهم الأدلاء ذوي الخبرة بالطرق الصحراوية في بلاد السودان الغربي.[١٤]

توات: تعتبر توات من المراكز الصحراوية الهامة، فموقعها كواحة وسط الصحراء جعلها حلقة وصل بين مراكز الشمال الإفريقي، وبين السودان الغربي؛ حيث عملت على تزويد التجار بما يلزمهم من غذاء وماء، وغالبًا ما يقوم تجار السودان وتجار الشمال الإفريقي بعرض بضاعتهم بها.[١٥] كان يوجد بواحات توات،[١٦] عدة ممالك وإمارات صحراوية صغيرة، يسيطر عليها التجار الأثرياء، وذوو الجاه، والنفوذ الديني، والاقتصادي، ويهتم سكانها بتجارة القوافل، التي تمر على واحاتهم ذهابًا، وإيابًا، بين السودان الغربي، وبلاد المغرب.[١٧] وقد كان اليهود يشكلون المحرك الأساسي لتجارة إقليم توات، فقد مارسوا إلى جانب التجارة صياغة الحلي، وسك النقود، ولعبوا أدوارًا مهمة كوسطاء تجاريين، إذ كانوا على اتصال بكبار أرباب التجارة، وأرباب السفن، والشركات الأوربية وبهذا أصبحت توات ملتقى طرق مهم لعدد كبير من القوافل.[١٨]

سجلماسة: تقع هذه المحطة التجارية في الحدود الجنوبية الشرقية للمغرب، وهي من أهم المراكز التجارية الشمالية لما كانت تقدمه للتبادل التجاري بين الشمال، والأقاليم السودانية. يذكرها الحسن الوزان بقوله: "مدينة متحضرة جدًا، ودورها جميلة، وسكانها أثرياء بسبب تجارتهم مع بلاد السودان، بُنيت هذه المدينة في سهل على واد زيز، واحتيطت بسور عالي مازالت بعض أجزائه باقية."[١٩] اكتسبت سجلماسة أهميتها كممر تجاري هام للقوافل الصحراوية بفضل مجاورتها لبلدان السودان الغربي، والصحراء معًا.[٢٠] ارتبطت سجلماسة بعلاقات متينة مع المراكز التجارية بالسودان الغربي، فكانت القوافل تنقل البضائع المغربية إلى السودان، وتأتي ببضائع السودان- وهي نفس البضائع التي تستوردها المراكز الشمالية الأخرى- وهذا ما كان له أثر ايجابي على الحالة الاقتصادية، والاجتماعية لسكان سجلماسة، وازداد ثراؤهم بسبب هذه التجارة المربحة.[٢١] وازدادت أهمية سجلماسة خاصةً بعد ترك الطريق الرابط بين مصر وبلاد السودان، وأصبحت القوافل تعبر الطريق بالمغرب إلى سجلماسة لذا اعتبرها صاحب الاستبصار أعظم مدن المغرب، وهي مقصد الصادر والوارد كما يقول الإدريسي،وظلت تحتفظ بقيمتها إلى أن خربت أواخر القرن الثامن عشر.[٢٢]

درعة: تقع هذه المنطقة شرقي مدينة سجلماسة جنوب المغرب الأقصى، وكانت مركزًا هامًا، ومحطة تجارية على أول الصحراء، بها

علمية. عالمية. مُحكّمة. ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449

"مسجد وأسواق جامعة ومتاجر رابحة".[23] تتوفر أسواقها على مختلف المنتجات التي تجود بها المنطقة، وتعرض متاجرها البضائع المحلية والمستوردة. يقول عنها الحسن الوزان: "وليس في قصور هذا الإقليم سوى القليل من مرافق الحياة الحضرية، على الرغم من وجود صُنّاع، بالإضافة إلي صائغين يهود في طرف الإقليم المقابل لموريتانيا على الطريق الرابطة بين فاس وتمبكتو. يقيم فيها التجار الغرباء عن البلاد والتجار الدرعيون، وتشتمل المدينة على دكاكين ومساجد تامة التجهيز،- وهذا ينم ما حسب رأي على تمسك أهلها بالدين الإسلامي والمحافظة على الصلوات في المسجد-، كما تنمو بها كميات هامة من أشجار النيلة ويستبدلون به سلعًا مستورد من فاس وتلمسان".[24] كان تجار درعة يصنعون كميات كبيرة من النيلة، ويبيعونها إلى تجار فاس وغيرهم من تجار المغرب بالمقايضة مع بضائع أخرى. أما أهم المحاور التجارية مع إقليم درعه تمر بالطرق المؤدية من فاس إلى تمبكتو وموريتانيا.[25] وقد استقرت بدرعة مجموعة من العرب والمغاربة والعرب غير المغاربة، الذين اشتغلوا بالتجارة وخدمة القوافل، وقد كان تواجدهم حاضرًا في مراكز التجارة، والعلم بالسودان الغربي، فكثيرًا ما نجد التاجر الدرعي في المصادر القديمة.[26]

وهناك مراكز ومحطات تجارية أخرى كان لها دور كبير في تنشيط التجارة البينية بين الشمال الإفريقي، والسودان الغربي؛ كفاس، ومراكش، وتلمسان، وغرداية، وتوقرت، والقيروان ...الخ. وقد اكتفينا في هذه الجزء بذكر أهم المراكز الشمالية -على سبيل المثال لا للحصر- القريبة من السودان الغربي جغرافيًا، والتي كانت في احتكاك مستمر حتى في الفترات العصيبة التي مرت بها المنطقتان خلال القرنين الثامن والتاسع عشر ميلادي؛ أي خلال فترة التوغل الاستعماري في الداخل السوداني، وانعدام الأمن نظرًا لكثرة الإغارة على القوافل التجارية العابرة الصحراء الإفريقية، سواء كانت متجهة من الشمال إلى الجنوب، أو العكس.

٢/١- المراكز السودانية:

قامت في السودان الغربي عدة مراكز عمرانية، وحضارية مهمة، سنقوم بدارسة بعض هذه المراكز، ونبين كيف تمثل دورها في عملية التبادل الحضاري مع مراكز الشمال الإفريقي، وما هي الآثار الناتجة عن هذا التواصل الحضاري.

تمبكتو: تقع تمبكتو[27] على الحافة الجنوبية للصحراء الكبرى ما يُعرف بـ "منحى نهر النيجر"، يعود تأسيسها حسب بعض الروايات المتداولة إلى نهاية القرن الخامس الهجري أي القرن الحادي عشر الميلادي علي يد الطوارق،[28] وزارها الرحالة العربي الشهير ابن بطوطة سنة ١٣٥٠م ودون ملاحظاته عن حياة أهلها في رحلته الشهيرة.[29] قدر سكان تمبكتو في إحصائيات سنة ١٨٩٨م بـ ٥٠٠٠[30] ساكنًا. فقد كانت عامرة بمختلف الأجناس من العرب، والمغاربة، والبربر، والبمبارا، والفولن لغرض التبادل التجاري، وقد وصفها السعدي بأنها مدينة عامرة يأتيها الناس من كل مكان حتى صارت سوقًا للتجارة.[31] بلغت تمبكتو ذروة ازدهاره الاقتصادي خلال القرن السادس عشر الميلادي، الذي عُرف بالعصر الذهبي لتلك المدينة، وقد بلغت القوافل القادمة من الشمالي الإفريقي خلال منتصف القرن الرابع عشر ١٢٠٠٠ جمل.[32] وبفضل موقعها المميز أصبحت تستقطب التجار والعلماء، وأصحاب الأموال من مصر، وفزان، وغدامس، وتوات، ودرعة، وفاس لطلب العلم أو للتدريس في مساجدها والبحث عن الربح الوفير بالنسبة للتجار وأصحاب الأموال.[33] وكان الوصول إليها سهلاً من المغرب، وغيره من الأماكن -كل القوافل سواء القادمة من الشمال، أو الجنوب تحط رحالها لتفرغ، أو تأخذ البضائع من سوق تنبكت-، وكان يأتي إليها طريق تغازة بالملح وتجارة بضائع البحر الأبيض المتوسط، وأرز النيجر، والدخن، والذهب والعبيد، والعاج، والجوز والكولا من المناطق المجاورة.[34]

جني: من المراكز الحضارية السودانية المشهورة بعد تبكت ،تقع إلى الجنوب الغربي من تمبكتو، حظيت بأهمية اقتصادية كبيرة نظرًا لموقعها المميز، كملتقى للقوافل التجارية التي تسير بين شمال الصحراء، وجنوبها، واشتهرت بتجارة الملح والذهب.[35] وصفها السعدي قائلاً: "وهي مدينة عظيمة ميمونة مباركة ذات سعة وبركة ورحمة... وهي سوق عظيمة من أسواق المسلمين، وفيها يلتقي أرباب الملح من معدن تغازة وأرباب الذهب من معدن بيط".[36] وقد اختلف في تسمية هذه الحاضرة، فسماها الأفارقة "كناوة"، وسماها أهلها "جيني" وهي اسم مدينة ومملكة في نفس الوقت، تمتد على طول نهر النيجر على مسافة مائتين وخمسين ميلاً حسب ما جاء في "وصف إفريقيا" للحسن الوزان.[37] تُعّد جيني من المراكز السودانية ذات الحركة التجارية النشطة على غرار تنبكت فهيا توفر للتجار مختلف المواد التي يتم المتاجرة بها مثل الأرز، والشعير، والسمك المجفف، والمنسوجات القطنية، ويتعامل تجارها مع التجار القادمين من المراكز الشمالية محملين البضائع التي تُنتج هناك، والألبسة الأوربية، والنحاس والأسلحة مثل الخناجر، وقطع الحديد لشراء المأكولات أثناء الحاجة كاللبن والحليب والعسل، وتزن هذه القطع الحديدية قرابة الرطل.[38] ويعود الفضل في بناء هذه الحاضرة السودانية إلى برابرة صنهاجة، فقد اختطوها لتكون ملتقى لتجار الملح والذهب.[39]

غاو: اختلفت المصادر العربية في تسميتها فنجدها عند كعت "كوكو"، و"كاغ".[40] "وكاو"، و"كاغ" عند السعدي،[41] أما الحسن الوزان فيسمها "كاغو"،[42] و"كوغة" عند ابن حوقل.[43] تُعّد غاو من أشهر حواضر السودان الغربي، فهي تقع على نهاية الطريق الصحراوي عبر المنطقتين الشرقية والوسطى، من الصحراء الكبرى المتجهة نحو حوض النيجر، وقد مكنها موقعها المتميز، بإشرافها على حركة الملاحة، والتجارة على امتداد نهر النيجر، نحو الجنوب والغرب. وتيسرت اتصالاتها بهذه المناطق، فتجمعت في المدينة بضائع المنطقة كلها، وارتادتها القوافل التجارية منذ القدم.[44]

علمية. عالمية. مُحكّمة. ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449

وصفها البكري فقال: "إنها مثل غانة فيها أحياء خاصة بالتجار المسلمين من عرب شمال إفريقيا".(٤٥) أما الوزان فيقول في شأنها: "أن كاو مدينة عظيمة، وسكانها تجار أغنياء يتجولون دائمًا في المنطقة بسلعهم، ويأتي إليها عدد لا يحصى من السود حاملين معهم كمية وافرة من الذهب ليشتروا بها أشياء مستوردة من البربر وأوربا، والمدينة متحضرة جدًا بالنسبة لتمبكتو".(٤٦) ويشير إليها اليعقوبي باعتبارها أعظم الممالك، وأكثرها أهمية، وهو يقول أن كل ملوك الزنوج يدفعون الجزية لكوكو(غاو).(٤٧)

أضحت غاو(٤٨) مركزًا تجاريًا هامًا، بفضل موقعها، وأسواقها العامرة، وجاءها التجار من كل مكان، لتبادل المنتجات المتنوعة، وجعلوا منها محطة لإفراغ حمولة القوافل الواردة من الشمال أو الجنوب.(٤٩) يقول عنها فليكس ديبوا (Félix Dubois): "مدينة غاو جوهرة وادي نهر النيجر وأنها مدينة عظيمة مثل سيقو ونيامي".(٥٠) لكن وبحلول القرن الثامن والتاسع عشر فقدت المدينة مكانتها الحضارية التي كانت تعرفها في السابق، وذلك لعدة عوامل منها انعدام الأمن للقوافل التجارية التي تعبر الصحراء الكبرى قادمة من المراكز الشمالية، أو القوافل القادمة من الجنوب، أضف إلى ذلك وقوع المنطقة تحت السيطرة الاستعمارية.

تغازة: اسم يطلق على منجم مشهور في تاريخ السودان الغربي بمعدن الملح، يقع إلى الشمال الشرقي من تاوديني، وإلى الجنوب الغربي من توات. ذاع اسمها بسبب ندرة الملح عند الزنوج، وارتفاع ثمنه حتى أنه كان يبادل بمثل وزنه ذهبًا. هذا ما ذكره ابن بطوطة، وغيره من الرحالة، والجغرافيين العرب، ومن عجائبها حسب ما أورده ابن بطوطة في كتابه "تحفة النظار" أن بناء بيوتها، ومساجدها من حجارة الملح، وسقفها من جلود الجمال.(٥١) وهذا يدل على كثرة الملح، الذي كان ينقل بواسطة قوافل تجار الشمال الإفريقي، وخاصةً المغرب إلى أصقاع السودان الغربي، وبذلك مثلت تغازة مركزًا تجاريًا لأهم معدن.(٥٢) وقال عنها الحسن الوزان: "تغزة مكان مأهول فيه عدد من مناجم الملح التي تشبه مقالع الرخام يستخرج الملح من حفر تحيط بها أكواخ عديدة يسكنها المستخدمون لاستخراج الملح، وليسوا من سكان البلدة، بل هم من أصل أجنبي، يأتون مع القوافل ويقيمون هنا كمنجميين يستخرجون الملح ويحتفظون به حتى تأتي قافلة فتشتريه منهم. ومن هنا يحمل إلى تمبكتو التي يعوزها الملح كثيرًا. يحمل كل جمل أربعة قطع من الملح...".(٥٣)

أقدز: تقع اليوم في الشمال الشرقي من نيامي،(٥٤) وتبعد عنها بألف كيلومتر.(٥٥) لها مكانة تجارية هامة كمثيلاتها المراكز التجارية السودانية الأخرى. قال عنها الحسن الوزان: "مدينة ميسورة بناها الملوك المحدثون في تخوم ليبيا، وهي مدينة السود التي تكاد تكون أشهر مدن البيض باستثناء ولاته، وأن أغلب سكانها من العرب المغاربة الذين يشتغلون بالتجارة وهذا دليل على أهميتها، ولكل تاجر عدد كبير من العبيد يخدمون كحراس له في الطريق المؤدية من (كانو) إلى (بورنو)".(٥٦) بُنيت منازل أقادز حسب الهندسة العربية، ويكاد يكون أهل البلد كلهم تجار، وأغلبهم أجانب، أما الذين لا يمارسون التجارة، فإنهم يمارسون الصناعات اليدوية أو يشكلون جند الأمير.(٥٧) يعتمد دخل أقادز على جباية الضرائب، فتتحصل على مبالغ مالية هامة من التجار الوافدين إليها، وقد حملت إليها البضائع المتنوعة من إقليم فزان، وغدامس، وزويلة، ونقلت منها القوافل بضائعها المتمثلة في البخور، والذهب، كما كان العلك من بين المواد الغالية الثمن التي تحمله القوافل التجارية إلى أقادز.(٥٨) وفي أواخر القرن التاسع عشر، وبداية القرن العشرين بدأت أقادز، وغيرها من الحواضر السودانية تفقد مكانتها الحضارية والاقتصادية وفي التراجع عن أداء دورها كأحد أهم المحطات الحضارية، والتجارية في تاريخ التبادل، والتواصل بين الشمال ، والجنوب، وذلك لعدة أسباب لعل أهمها الأوضاع السياسة المضطربة التي شهدتها المنطقة خلال هذه الفترة، ولسبب التوسع الاستعماري في الأقاليم الداخلية للسودان الغربي.

ثانيًا: أهم المسالك التي كانت تسلكها القوافل التجارية

كانت القوافل التجارية إلى السودان الغربي تخترق الصحراء الكبرى من جميع جوانبها، أما اتجاهها فشمال إلى الجنوب، وبالعكس، وهذا باستثناء الطريق الذي يربط مصر بالمنطقة فإن اتجاهه كان غربًا إلى الشرق وبالعكس، وكانت هذه المسالك الصحراوية كثيرة،(٥٩) غير أننا سنكتفي بالتطرق إلى المشهور منها والذي كان يشهد حركة تجارية نشطة بين الأقاليم الشمالية لإفريقيا، والحواضر السودانية لجنوب الصحراء.

(١) **طريق مراكش إلى تمبكتو:** يمر هذا الطريق على تارودانت وتاوريت وتندوف، ثم تاوديني، وأروان ليتجه في الأخير إلي تمبكتو، وقد سلك هذا الطريق الكثير من الأوربيين خلال القرن التاسع عشر الميلادي في إطار كشفهم للمنطقة.

(٢) **طريق فاس مكناس:** يمر بواحات الساورة وتوات، وأكابلي، ومبروك ثم إلى تمبكتو.(٦٠)

(٣) **سجلماسة إلى أودغشت:** ينطلق إلى ولاته وقد أورد مارمول أسماء بئرين بين سجلماسة وتمبكتو وهي بئر زعوات، وعروان - ربما هي أروان-.(٦١)

(٤) **تلمسان:** وهو طريق صعب لا يوجد به الماء ولذلك يضطر المسافر لحمل الماء معه طيلة مدة السفر والتي تتراوح بين (٦) و(٧) أيام، كما يمر هذا الطريق على غرداية وتوات وينتهي في الأخير إلى تمبكتو.(٦٢)

(٥) **طريق وهران أرزيو:** يمر على منطقة خثير، ومشرية وعين الصفراء، وفقيق، ويتبع مجرى وادي روزفانة إلى إيجلي أين يلتقي بطريق فاس.

(٦) **طريق مدينة الجزائر تمبكتو:** ويمر على البليدة، وبوغار والأغواط، وغرداية، والقليعة، وعين صالح، وأكابلي أين يلتقي

علمية. عالمية. مُحكمة. ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449

بطريق توات إلى تمبكتو، وقد سلكه الفرنسيون خلال القرن التاسع عشر الميلادي.

(٧) **طريق سكيكدة قسنطينة**: يمر على باتنة، وبسكرة وتوقرت، ورقلة، والبيوض، وأمقيد، وتيمساو، وايفران، وإلى مبروك ومنه وصولاً إلى تمبكتو.[٦٣]

(٨) **طرابلس تمبكتو**: ويمر على سناون، غدامس، وتماسينين، والبيوض. أين يتصل بطرق قسنطينة إلى تمبكتو. ولهذا الطريق فرع من غدامس إلى غات، وبير عيسو، وأقادز، ثم إلى سوكوتو، وكاتسينا غربًا، وإلى أقاديم، وماو شرقًا.[٦٤]

(٩) من واحة الجريد في جنوب تونس تمر قوافله بورقلة وسوف،[٦٥] وغدامس ثم تتجه إلى الجنوب.

(١٠) **مصر تمبكتو**: يمر بواحة سيوة، وبزويلة، وتادمكة، ويستمر إلى غاية تمبكتو.

كانت توجد على طريق القوافل آبار وجدت منذ عهد مملكة مالي في معظم مناطق السودان الغربي.[٦٦] وكان ضمن القوافل التجارية التي تمر عبر هذه الطرق الصحراوية إضافة إلى البضائع، هناك العلماء، والدعاة الذين يقومون بنشر الإسلام، والعلم في المناطق، والحواضر السودانية، وهذا ما أدى إلى اعتناق الكثير من أهل السودان الغربي الدين الإسلامي، نظرًا لما كان يتحلى به التاجر المسلم من انضباط، وتسامح أثناء التعامل مع الناس.[٦٧]

ثالثًا: طبيعة المبادلات التجارية بين الحواضر الشمالية والجنوبية للصحراء الكبرى

١/٣- الصادرات السودانية:

كان للسلع القادمة من السودان الغربي الدور الكبير في تنشيط الحركة التجارية بين السودان الغربي، والحواضر الشمالية. وسنكتفي هنا بذكر البضائع التي كانت تشكل عماد التبادل التجاري بين هذه الحواضر خلال منتصف القرن التاسع عشر إلى غاية بداية القرن العشرين.

الذهب: إلى غاية منتصف القرن التاسع عشر كان الذهب يشكل المادة الأساسية لهذه الحركة التجارية الواسعة بين العالم الخارجي، والسودان الغربي، وقد اشتهرت عدة مواقع سودانية عبر التاريخ بوفرة هذه المادة الساحرة، وكتب الكثير من المؤرخين العرب، وغيرهم في شأن هذه المادة تصل أحيانًا إلى درجة المبالغة في طريقة جمعه.[٦٨] فقد ذكر ابن حوقل: "أن ملك غانة، وغانة أيسر من على وجه الأرض من ملوكها بما لديه من الأموال و المدخرة من التبر".[٦٩] وقد كان التجار يعودون من السودان محملين بأكياس من الذهب، وهذا ما كان يدفعهم على تحمل المشاق وقطع المراحل الطويلة الشاقة في الصحراء، فيقطعون مسافة تقدر بشهرين بين المغرب والسودان الغربي وأن البضائع التي يوصلها التجار الأوربيون إلى السواحل الإفريقية، كان يحمل منها قدر غير يسير إلى السودان، أما التجار الأوربيون، والمراكشيون فكانوا في الغالب يأخذون بدلها ذهبًا.[٧٠] وقد كان هذا المعدن بالنسبة للسودانيين عاملاً كبير الأهمية في تاريخهم، فهو الذي أخرجهم من عزلتهم، وجلب إليهم التجار، وكان له الفضل في الرفاهية إلي شهدوها خلال الفتة الوسيطة، والعصور الحديثة، كما ساهم في قيام عدة إمبراطوريات سودانية.[٧١]

العبيد: كان العبيد عبارة عن سلعة بشرية واسعة الانتشار في السودان الغربي خلال هذه الفترة، فيؤتى بهم من المناطق الداخلية والساحلية، ويتم الحصول على هذه البضاعة عن طريق الاستيلاء والقنص وأسرى الحروب.[٧٢] كانت أسواق السودان الغربي عامرة بالعبيد من مختلف الأعمار، وكانت أثمانهم منخفضة في السودان عنها في العالم الخارجي، لذا كان التجار يعودون بأعداد كبيرة منهم، ويقومون ببيعهم في أسواق المراكز الشمالية، وعلى السواحل للتجار الأوربيين الذين يحملون أعدادًا هامة منهم إلى الجانب الآخر من المتوسط، وهكذا كان العبيد يشكلون جزءًا مهمًا من صادرات الممالك السودانية.[٧٣]

العاج: كانت هذه السلعة متوفرة بكميات كبيرة في مناطق السودان، وخاصةً في المناطق الشرقية ككانو، وبرنو، وتكون عادةً من أنياب الفيل، وفرس النهر، ووحيد القرن، ويتجمع معظم إنتاجه في حاضرة كانو، وكان يباع بسعر ٥٠٠ فرنك للكغرام الواحد.[٧٤] وعن كيفية الحصول على هذه المادة من الفيل يقول الوزان: "... فإذا دخل الفيل في السياج الذي ينصبه الصيادون بين الأشجار جذبوا الحبل بقوة ووقع في السجن، فينزل الصيادون من الأشجار ويقتلون الفيل بالنبال ثم يأخذون أنيابه ليبيعوها...".[٧٥] وكان يصنع من هذه المادة الأدوات المنزلية كأواني الشرب، ويستعمل لتزيين الخيول، وهو من الكماليات المرغوب فيها خاصةً لدى أسواق الشمال الإفريقي، وتجارته كانت رائجة إذ يتم نقله إلى المغرب الأقصى، ومن ثَمَّ إلى أسواق أوربا.[٧٦]

ريش النعام: كان لريش النعام رواج كبير في الأسواق، وعليه إقبال كبير، حيث كان يستعمل في حشوى الأرائك والمخاد في البيوت، والقاعات، وتتخذ منه الطبقات الموسورة مراوح للتهوية، أو للزينة، ولذا فقد كان التجار يجلبون منه مقادير هامة أثناء رجوعهم من السودان.[٧٧] وتُعّد باريس أكبر سوق له، وقد كان ثمنه يتراوح مابين (١٠ – ٥٠٠) فرنك للجنة، غير أن الكثير من الناس أخذوا يقلعون عن شرائه، نظرًا لانتشار موجة من التفكير الإنساني التي تحارب هذا النوع من الزينة، بحجة أن فيه تعذيبًا لطائر النعام، كما حدث تطور في وسائل الزينة الذهبية فأقلع الناس عن شرائه.[٧٨] أما بيض النعام فيتخذ من محه أحد العناصر الهامة في تركيب الأدوية، كما كان يوضع فوق المناضد، أو يغلق على حيطان القاعات للزينة لذا كان التجار يجلبون منه ما تيسر لهم، وكانت أثمانه في الأسواق الخارجية مرتفعة.[٧٩]

علمية. عالمية. مُحكّمة. ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449

الجلود والأقمشة القطنية: اشتهرت بعض مناطق السودان الغربي بإنتاج كميات معتبرة من الجلود وخاصةً جلود (الماشية بأنواعها)، والأقمشة، ككانو، وزندر، وتعرف تمبكتو بالأقمشة القطنية التي يتم صبغها بالألوان المختلفة، وعادةً ما تكون الجلود باللون الأحمر والأصفر، أما الأقمشة باللون الأزرق النيلي، وتعرف عند الطوارق بالقماش الغيني، ومنه ما يحمل على شكل قطع ومنها ما يجهز على شكل ملابس ويصدر السودان الغربي من هذه البضائع بكميات معتبرة منها حوالي (١٥٠٠٠) فرنك سنويًا من الألبسة القطنية إلى الأسواق الخارجية.(٨٠) بالإضافة إلى بعض المنتجات الجلدية الأخرى كالسياط الجلدية، والأحذية، والقرب، وأكياس حفظ الحبوب.(٨١) كما كان السودان يصدر الأبنوس، والعسل، والصمغ، وحبوب الكولا، والشب إلى أسواق الشمال الإفريقي.(٨٢)

٢/٣- الواردات السودانية:

جلب إلى السودان الغربي أنواع كثيرة من السلع، أتى جزء منها من حوض البحر المتوسط، وأتى جزء آخر من داخل الصحراء، ومن أهم السلع الأجنبية التي عرفتها الأسواق السودانية نذكر ما يلي:

- الأقمشة المختلفة من كل جنس، وأنوع صوفية، وقطنية، وحريرية وأشهرها الجوخ والشاش.
- الأسلحة المختلفة، لتسليخ القوات المحلية، كالدروع، والخوذ، والخناجر، والسهام، والتروس، وأقواس النشاب، والبنادق الأوربية، والأمريكية الصنع، وكان الأمراء والسلاطين يتنافسون في تسليح قواتهم المحلية حتى يفرضوا احترامهم على جيرانهم.(٨٣)
- أواني النحاس قسم منها كان يستعمل للزينة كالأساور والأقراط، وقسم آخر كان في شكل جفان وأوان منزلية جيدة الصنع، والقسم الثالث كان في شكل أقفال وحلق الأبواب لزينة المنازل ولتجهيز الخيول، والمصنوعات الحديدية لصناعة السكاكين والمناجل، وأدوات الحرث، والمصنوعات الزجاجية كالكؤوس والبعض الأخر كان في شكل حبات لتنظيم الأسباح، أو كرات صغيرة تدرج في عقود للأعناق أو الأيدي، تتزين بها النساء خاصة وبعض القطع المرجانية. والودع التي كانت يقيم بالذهب لأهميته عند الناس، وكان يجلب من الشمال ومن بعض الممالك الجنوبية للسودان.(٨٤)
- الروائح العطرية، والأدوية العشبية، والبهارات، ومواد الصباغة -النيلة من المغرب-، والشاي، والسكر، وصمغ الصنوبر.(٨٥)
- بضائع البندقية (إيطاليا)، وميلان، وبرشلونة من الحي والمرجان، والذهب، والفضة، والمرايا، والأمشاط، والخردوات المستعملة.(٨٦)
- ومن المواد الغذائية: الخضر الجافة، والزيوت، والشحوم، الزبدة،(٨٧) والتمور من الواحات الصحراوية، وعلى رأسها واحات ورقلة، تقرت، توات، والتين المجفف، وقد أشار المؤرخون أنه كان من بضائع التي تحمل إلى السودان، ويجمعه التجار من مختلف أسواق المغرب، وقد كان القمح غذاء الطبقات الميسورة فقط، ولقلته في السودان الغربي كان يجلب من المغرب بدرجة أولى، وكان يشكل جزءًا كبيرًا من أعمال القوافل المتوجهة من المغرب إلى السودان الغربي.(٨٨)
- الملح يعتبر من السلع المهمة في تجارة الصحراء منذ فترة طويلة، قبل الفتح الإسلامي لشمال إفريقيا، وذلك لعدم توفره بكميات تكفي لسد متطلبات سكان السودان الغربي.(٨٩)
- وكانت الخيول والجمال من بين البضائع التي يستوردها السودانيون، وقد كانت جاو سوقًا رائجًا لتجارة الخيول الأصيلة مع سروجها،(٩٠) وكان التجار يحققون أرباحًا وفيرة من جراء هذه التجارة، فقد بلغ مثلاً سعر الحصان الواحد في غاو من (٤٠ – ٥٠) مثقالاً بينما بلغ الجمل في تكدا (١٦.٥) مثقالاً.(٩١)
- وكانت الكتب المخطوطة، والمنسوخ، والورق، والأقلام من السلع المستوردة والمرتفعة الثمن، وكانت تمبكتو سوقًا رائجة لها، وذلك بسبب ازدهار الثقافة العربية الإسلامية، وانتشارها بشكل واسع.(٩٢)

وعلى إثر ازدهار تجارة الكتب ونشاط الحركة العلمية، نشأت حرفة الوراقين كتقليد لما كان في المغرب ومصر، وألف السودانيون عدة مؤلفات هامة(٩٣) في الشريعة الإسلامية، وفي السير، والتراجم، والتاريخ، ومن هؤلاء نذكر على سبيل المثال لا للحصر أحمد بابا التمبكتي، والقاضي محمود كعت، وعبد الرحمان السعدي، وعثمان دان فوديو وابنه محمد بللو، والبرتلي الولاتي.(٩٤) ولقد كان الحصول والتمتع بالبضائع الأجنبية ينحصر بشكل عام لدى سكان المدن، والموسرين منهم بشكل خاص، أما سكان الأرياف والبوادي، فلم يكونوا يعرفون عنها إلا القليل، أو أنهم شاهدوها بأعينهم ولا يستطيعون الحصول عليها إلا نادرًا وذلك لقلة ما بأيديهم من الأموال، ثم أن التجار إنما كانوا يقصدون أسواق المدن، ويعرضون بها بضائعهم، وكان سكان البوادي يذهب قليل منهم فقط لتلك الأسواق.(٩٥)

رابعًا: نظم التعامل التجاري وأهم الأسواق والعملات المستعملة

كان التجار في حواضر الصحراء الكبرى يتعاملون تجاريًا بالطرق والعملات التالية:

١/٤- المقايضة:

كانت المقايضة أحد أهم أساليب التعامل التجاري السائد في الأسواق السودانية، نظرًا لقلة العملات وضعف انتشارها، واستعمالها وأساسها الاتفاق بين طرفين فيما يعرضونه من بضائع،

علمية. عالمية. مُحكّمة. ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449

ويعرف هذا النوع من التجارة بالتجارة الصامتة.[٩٦] وحتى نعطي فكرة واضحة عن هذا النوع من التعامل الذي كان يتم بين التجار وهو النمط الأكثر تداولاً حسب القاعدة التالية:

- حمولة واحدة من القمح تعادل خمس حمولات من تمر الحميرة.
- حمولة واحدة من الشعير تعادل خمسة عشرة حمولة من تمر الحشف وأثنتين من تمر الحميرة.
- واحد كيلوا غرام من القمح يعادل خمسة كيلوغرامات من الفلفل الحار.
- رأس واحد من الغنم يعادل حمولة واحدة من تمر الحميرة.[٩٧]

٢/٤- الملح:

كان يتم تقطيعه إلى قطع مختلفة الأحجام والأشكال وتستغل في البيع والشراء،[٩٨] ولكثرة التداول به في ظل ندر العملات، أو الذهب حتى عده المؤلفون العرب نقودًا في السودان الغربي في ذلك العهد.[٩٩]

٣/٤- الودع:

كان التعامل بالودع كثيرًا، في منطقة السودان الغربي، وقد ذكره الجغرافيون والرحالة على أنه من العملات الكثيرة التداول في مراكز السودان الغربي التجارية، وكان التجار يحضرونه بكميات كبيرة -لقوته الشرائية الجيدة- من الأندلس والمغرب الأقصى.[١٠٠] وتختلف قيمته النقدية من وقت لآخر، والودعة الواحدة يمثل ثمنها بالذهب حولي (٠.٣٥) فرنك، وتجلب هذه العملة من الهند عن طريق التجار المغاربة والمصريين.[١٠١] وقد بقي التعامل بالودع قائمًا في مختلف مناطق السودان الغربي حتى سنة ١٩٠٠م وخاصةً في حوض النيجر، وكانت قيمته ترتفع أو تنخفض عكسيًا حسب كثرة، أو قلة المواد الغذائية، وبالإضافة إلى ذلك كله فقد كان الزجاج والمنسوجات القطنية والعسل، والخيول بالإضافة إلى قطع الحديد، والفضة من بين الأشياء التي يقع بها الدفع، وتقوم في التبادل مقام النقود.[١٠٢]

٤/٤- العملة المسبوكة:

إلي جانب وسائل الدفع السالفة الذكر هناك عدة عملات شاع استعمالها في التجارة السودانية بعضها محلي والبعض الآخر مستورد من أهمها:

- الدنانير الذهبية: كانت تضرب في سجلماسة من الذهب على شكل قطع أو تبر.[١٠٣] وهي غير مختومة وتسمى الصلع.[١٠٤]
- عملة نحاسية: وهي حمراء رقيقة وغليظة، ذات قيمة منخفضة جدًا.
- الكوري (couris): وهي عملة فارسية وهندية قيمتها منخفضة، بحيث (١٠٠) كوري يساوي (٠.٧٥) فرنك.
- الدوخة (ducat): الذهبية والفضية.
- الدراخمة: وهي عملة مستوردة من طرف التجار من الخارج.
- المثقال الذهبي: ويساوي (١٩) فرنكًا في تمبكتو.[١٠٥]
- المحبوب، والموزونة، والقائمة، والدورو: عملات شائعة الاستعمال في بلدان المغرب العربي، وبعض العملات المصرية والأوربية.[١٠٦]

ومن وسائل الدفع التي استعملها تجار السودان الغربي، وجود معاملات تجارية مكتوبة على شكل عقد، فابن حوقل يذكر لنا أنه رأى صكًا كُتب بدين على أحد التجار المغاربة.[١٠٧]

٥/٤- الموازين والمكاييل المستعملة في التجارة الصحراوية:

لقد كانت للسودان الغربي مقاييس، ومكاييل، وموازين ثابتة، يتم التبادل والتعامل وفقها، في جميع أنحاء السودان وخارجه، ويبدو أنها انتقلت إلى السودان عن طريق المغرب الأقصى.[١٠٨]

الموازين:

- المثقال: يساوي (٧٢) من حبات القمح المتوسط الحجم.
- الدرهم: يساوي سبعة أعشار الدينار.
- الدينار: يساوي أربعين درهمًا.
- الأوقية: تساوي (٢٧.٥) غرام تقريبًا.[١٠٩]

المكاييل:

- المد: ويساوي أربعة أمداد بجمع اليدين.
- الصاع: ويساوي أربعة أضعاف المد؛ أي ما يعادل ثلاثة كيلوغرامات.
- المرطة: تساوي أربعة صيعان.
- القنطار: كان يساوي مائة رطل.
- المودي: هو ما يحمله العبد أو الرجل من حبوب أو نحوه في كيس من الجلد.[١١٠]

المقاييس:

- الشبر: يساوي الامتداد بين الإبهام والخنصر حين تكون الكف مفتوحة، وقدر بحوالي (٢١.٥ سم).
- الذراع: وهو الامتداد بين عقدة المرفق ونهاية الوسطى، حوالي (٥٠ سم) تقريبًا.
- الميل: وهو يستعمل في قياس المسافات بصورة خاصة، وقدر بـ (١٩٢٠م) بالتقريب.
- الفرسخ: تقاس به المسافات الطويلة ويساوي ثلاثة أميال أي: (١٩٢٠×٣=٥٧٦٠) مترًا تقريبًا.
- استعمل البريد أيضًا ولكن بقلة، وكان يساوي المسافة التي تعادل سير ساعة الحصان المسرع.[١١١]

أسواق السودان الغربي وبعض أسعار سلعها ووسائل النقل:

من أهم أسواق السودان الغربي التي كان صداها يتعد حدوده الجغرافية نذكر ما يلي:

(أ) سوق تمبكتو، التي كانت لها أهمية خاصة خلال العصر الوسيط تجاريًا، وثقافيًا في أقصى الجنوب، وتوات وعين صالح، في إقليم تيديكلت في الشمال. وبين سوق تمبكتو،

علمية. عالمية. مُحكمة. ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449

وأسواق توات وتيديكلت على طول الطرق توجد أسواق: أروان، ومبروك، وايفروان، وتيميساو، وأونان، وتاوديني، ووالن، وأكابلي، ووتيريشومين، وأسواق كاتسينا، وأقادز، وكوكو، وبيلما ناحية الشرق.(١١٢)

(ب) أسعار بعض المواد المتداولة في الأسواق السودانية والشمالية سنة١٨٦٢م: سنورد هنا أسعار بعض البضائع السودانية التي كان يتم اقتناؤها في الأسواق المحلية وهي على النحو التالي:

- العاج: من (٢٠٠) إلى (٢٢٠) ألف للكوري.
- ريش النعام: من (٥٠) إلى (٦٠) ألف كوري للكيلو غرام.
- تبر الذهب: من (٧) إلى (٨) ألف كوري للمثقال.
- العبد الذكر: من (١٢٠) إلى (١٣٠) ألف كوري.
- العبد الأنثى: من (١٥٠) إلى (٢٠٠) ألف كوري.(١١٣)

ما يمكن ملاحظته من خلال عرضنا لأسعار بعض البضائع السودانية في الأسواق المحلية أو الخارجية هو تنوع وتعدد السلع السودانية التي كانت رائجة في الأسواق الداخلية أو الخارجية، كما أن بعض السلع كانت تستورد من المراكز الشمالية كالنيلة، والصمغ ثم يعاد بيعها من جديد للتجار، وجل وحدات الوزن، والقياس، والعمولات المسبوكة التي كان يتعامل بها كانت أجنبية. أضف إلى ذلك؛ التباين في أسعار السلع بين أسواق الشمال، والأسواق السودانية، وهذا حسب رأينا يرجع لعدة عوامل نذكر منها: (كمية السلعة المعروضة في السوق، ونوعية وجودة السلعة /فالسلعة العالية الجودة تكون دومًا مرتفعة الثمن/، وتكاليف الإنتاج وأعباء النقل للبضاعة /فالسلع القادمة من أوربا مرتفعة الأثمان/، واحتكار السلعة من طرف بعض كبار التجار، والمضاربين، وندرتها في السوق يؤدي إلى ارتفاع سعر شرائها).

خاتمة

مما سبق يتضح لنا؛ أن الصحراء الكبرى لم تكن عاملاً من عوامل الانفصال بقدر ما كانت حلقة هامة من حلقات التواصل الحضاري بين المراكز الشمالية والمراكز السودانية. كانت فضاءً حضاريًا مفتوحًا يتم فيه تبادل مختلف المنتجات الفكرية، والمادية، وهذا ما أدى إلى بروز محطات، وحواضر فاقت شهرتها التجارية، والثقافية، والفكرية حدود الصحراء إلى العالم الخارجي، فاشتهرت تمبكتو، وفزان، وتوات، وسجلماسة كمحطات تجارية كبرى يتم فيها تلاقي التجار من كل جهة، واشتهرت غانة، ومملكة مالي بوفرة معدن الذهب، ووصفت كانو بمنشستر إفريقيا الغربية. وهذا عكس ما كان يروج له من قبل بعض المؤرخين الأوربيين في أن الصحراء تمثل الحد الفاصل بين حضارتين مختلفتين وليس من السهل إحداث التواصل والتمازج بينهما.

هكذا كانت الصحراء الكبرى الإفريقية، همزة وصل بين مختلف شعوبها، ومع شعوب العالم الأخرى، رغم قساوة مناخها ووعورة تضاريسها، وهكذا كانت مهدا لقيام حضارات راقية، ومركزًا للأنشطة المختلفة، وليس من الغريب اليوم أن يعود لها اليوم دورها ومكانتها الثقافية والاقتصادية، غير أنه لن يتأتى لها ذلك إلا في ظل استغلال مواردها المتاحة استغلالاً عقلانيًا.

الملاحق:

خريطة رقم (١)

المسالك التجارية الرابطة بين السودان الغربي والشمال الإفريقي

المصدر: هوبكنز، ر.ج: التاريخ الاقتصادي لإفريقيا الغربية، ترجمة، أحمد فؤاد بلبع، المجلس الأعلى للثقافة، ١٩٩٨. ص١٦٧.

علمية. عالمية. مُحكّمة. ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449

الهوامش:

(١) عبد القادر زبادية: **مملكة سنغاي في عهد الأسقيين(١٤٩٣-١٥٩١م)**، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، د. ت، ص٢١١. وعصمت عبد اللطيف دندش: **دور المرابطين في نشر الإسلام في غرب إفريقيا**، ط١، دار الغرب الإسلامي، لبنان، ١٩٨٨م، ص٤٨.

(٢) الهادي المبروك الدالي: **التاريخ السياسي والاقتصادي لإفريقيا فيما وراء الصحراء**، ط١، الدار المصرية اللبنانية، ١٩٩٩، ص٢٩٥.

(٣) في أصل تسمية ليبيا انظر: محمد مصطفي بازمه: **ليبيا**، ط٢، قورينا للنشر، د.ت، ليبيا، ص١٣.

(٤) الحسن الوزان: **وصف إفريقيا**، ج١، ط٢، ترجمة: محمد حجي ومحمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ١٩٨٣م، ص١٤٦.

(٥) الهادي المبروك الدالي: المرجع السابق، ص٢٩٧.

(٦) **كوكة**: عاصمة إقليم بونو ويقدر عدد سكانها سنة ١٨٥٠م حوالي (٦٠) ألف نسمة وتقع على مسافة قريبة من بحيرة تشاد، وتشتهر بصناعة الجلود، الصباغة، والبارود. **دكوة**: مدينة تابعة لكانو، تشتهر بصناعة الجلود، السيوف، والمصنوعات الخشبية. **زندر**: تقع شمال غرب كانو، وتعرف ببوابة الصحراء، ومحطة رئيسية للقوافل المتجهة من مرزوق إلى كانو، وتشتهر بالأنسجة القطنية، والمصابيح والجلود. **أنقورنو**: تقع جنوب كوكة، كان يعقد فيها سوق أسبوعي كل يوم أربعاء ويصل عدد وافديه أحيانًا إلى (١٠.٠٠٠) شخص تعرض فيه مختلف البضائع الشمالية والسودانية. **كانو**: تعد من أهم أسواق السودان الأوسط، وتحتل وسط الإقليم، ولها سمعة واسعة بفضل تجارتها وصناعتها، وتكثر فيها المدابغ والمصابغ، وتشتهر بصناعة الأنسجة القطنية والجلدية وشهرتها النسيجية وصلت أوربا، وكذلك الصياغة الفضية وتجارة العبيد. **سوكوتو**: عاصمة بلاد الهوسا، أسست من طرف سكان ولاته، وتشتهر بالمنسوجات القطنية، ودباغة الجلود. **وكتسينا**: تقع شمال كانو، وكانت مقر للحكم قبل انتقاله إلى سوكوتو، ومعظم سكانها من العنصر الفولاني، تُعَد محطة رئيسية بالنسبة للقوافل التجارية المتجهة من غات إلى كانو. انظر: حسين جاجوا: **دور غدامس التجاري مابين طرابلس والسودان الأوسط خلال (١٨٥٠-١٨٨١م)**، بحث لنيل دبلوم الدراسات المعمقة،(غير منشور)، إشراف: عبد القادر زبادية، جامعة الجزائر،١٩٨١م، ص١٠١.

(٧) الحسن الوزان: المصدر السابق، ص١٩٦.

(٨) الهادي المبروك الدالي: المرجع السابق، ص٢٩٩.

(٩) أبو الحسن علي بن سعيد: **كتاب الجغرافيا**، تحقيق إسماعيل العربي، ط٢، ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر، ١٩٨٢م، ص١٢٦.

(١٠) الحسن الوزان: المصدر السابق، ص١٣٦.

(١١) **أدغست**: تعد الباب الجنوبي التي تقف عندها قوافل السودان الغربي الواردة من كل ناحية نحوى المنحى العلوي للنيجر الذي كان يعتبر الممر إلى بلاد السودان، وهي مدينة تتحكم في مدخل السودان، وصفها كل من البكري والإدريسي، بأنها مدينة كبيرة آهلة رملية يطل عليها جبل موت، لا ينبت شيا وحولها بساتين النخيل، ويزرع فيها القمح بالقوس، ويسقى بالدلاء، وتعتبر أدغست من الأسواق الكبيرة التي يكثر بها البيع والشراء. انظر: عصمت عبد اللطيف دندش: المرجع السابق، ص ٤٨.

(١٢) **المرابطون**: أو **الملثمون**، هم عبارة عن تحالف قوي ظهر بين قبائل صنهاجة اللثام (لمتونة، وجدالة، ومسوفة)، وكان هذا الحلف بزعامة لمتونة، قاموا بأدوار مهمة في التاريخ خلال القرنيين الحادي عشر والثاني عشر ميلادي منها نشر الإسلام في السودان الغربي ونصرة المسلمين في الأندلس. انظر: عصمت عبد اللطيف دندش: المرجع السابق، ص ٥٢.

(١٣) محمد عيسى الحريري: **الدولة الرستمية في المغرب الإسلامي**، ط٣، دار القلم للنشر والتوزيع، الكويت، ١٩٨٧م. ص٢١٠.

(١٤) المرجع نفسه، ص٢١١.

(١٥) فرج محمد: **إقليم توات خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلادي**، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ١٩٧٧م، ص١.

(١٦) أختلف المؤرخون في أصل تسمية هذه المنطقة فقدموا تفاسير وأخبارًا متعددة في معناها ومصادرها، ولعلنا أوردنا ما ذكره السعدي سابقًا في أصل تسمية توات. وسنورد في هذه الصفحة ما ذكره بعض مؤرخي الغرب:- يرى ماندوفيل (Mandeville) أن أسم توات أطلقه الطوارق والعرب على الواحات المنتشرة على ضفاف واد الساورة، وواد مسعود. انظر:

Mandeville: *L'Algerie Méridionale et le Touat*, Paris, 1889, P.8 G,

أما روكليس (Reclus) يذهب إلى القول أن توات اسم بربري يعني الواحات، انظر:

Reclus, Élisée: *Nouvelle Géographie universelle*, T.XI (L'Afrique septentrionale), Paris, 1886. P.845.

أما مارتان (Martin) فيرى أن الكلمة أصلها إغريقي وتعني في ما معناه واحة الماء. انظر:

A.G.P Martin,: *quatre siécles d'histoire marocaine (1504-1904)*, Paris, 1923. PP.1- 2.

(١٧) يحي بوعزيز: **تاريخ إفريقيا الغربية الإسلامية**، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، ٢٠٠١م، ص٧٠.

(١٨) الهادي المبروك الدالي: المرجع السابق، ص٣٠٠.

(١٩) الحسن الوزان: المصدر السابق، ص١٩٦.

(٢٠) ابن حوقل (أبو القاسم، النصيبي): **كتاب صورة الأرض**، منشورات دار الحياة، بيروت، د.ت، ص ٦٧. وياقوت شهاب الدين: **معجم البلدان**، مج٥، ط١، مطبعة السعادة، مصر، ١٩٠٦م، ص٤١.

(٢١) الهادي المبروك الدالي: المرجع السابق، ص٣٠٣.

(٢٢) نبيلة حسن محمد: **في تاريخ إفريقية الإسلامية**، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ٢٠٠٧م، ص١٤٥-١٤٦-١٤٧.

(٢٣) أبي عبيد الله البكري: **المسالك والممالك**، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، د.ت، ص ١٥٥. والهادي المبروك الدالي: المرجع السابق، ص٣٠٤.

(٢٤) الحسن الوزان: المصدر السابق، ص١١٩- ١٢٠.

(٢٥) الهادي المبروك الدالي: المرجع السابق، ص٣٠٤.

(٢٦) مارمول كربخال: **إفريقيا**، ج٣، ترجمة، عماد حجي وآخرون، مكتبة المعارف، الرباط، ١٩٨٣م، ص١٤٥.

(27) René -Caillie: *Voyage d'un faux musulman à travers l'Afrique*, Tombouctou, le Niger, jenné et le Désert à travers le continent noir Edition, E, Ardant (Limoges), 1882. P.91.

(28) Abderrahaman ben Abdallah ben Imran ben Amir Es-Saadi: *Trikh Es-Soudan*, Trad de l'arabe par. Houdas, avec Benoist, Edmond, E. Le roux. Paris, 1898. P.35.

(29) Gouvernement générale de l'Afrique Occidentale Francais (Notice) sur la Region de Tombouctou. Impremirie-du Gouvernement, Saint-Luis,1896. P.5.

(٣٠) عند رجوعنا للعديد من المصادر والمراجع التي تطرقت لدراسة أو وصف تنبكتو رأينا اختلاف بشأن تعداد سكانها، منها ما يزيد عن هذا العدد ومنها ما يقل. وقد اقتصرنا على العدد الذي يبدو معقولاً مقارنة بوضع تنبكت الاقتصادي والاجتماعي خلال الفترة المدروسة. انظر:

Mgra, Hacouard: *Monographie de Tombouctou*, Société de etudes, colonials et Maritimes, Paris.1900. P.24.

(٣١) عبد الرحمان السعدي: **تاريخ السودان**، الترجمة الفرنسية لهوداس، باريس،١٩٨١م، ص ٢٠-٢١.

علمية. عالمية. مُحكَمة. ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449

(٣٢) الهادي المبروك الدالي: المرجع السابق، ص٣٠٨.

(٣٣) عبد الرحمان السعدي: المصدر السابق، ص٢١.

(٣٤) نبيلة حسن محمد: المرجع السابق، ص١٥١.

(٣٥) الهادي المبروك الدالي: المرجع السابق، ص٣٠٦.

(٣٦) عبد الرحمان السعدي: المصدر السابق، ص١١-١٢.

(٣٧) الحسن الوزان: المصدر السابق، ص١٦٢-١٦٣.

(٣٨) المصدر نفسه، ص١٦٣.

(٣٩) محمد حوتية: **توات والأزواد خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلادي**، رسالة دكتوراه دولة في التاريخ الحديث والمعاصر (غير منشورة)، جامعة الجزائر، ٢٠٠٣/٢٠٠٤م، ص١٣.

(٤٠) محمود كعت: **تاريخ الفتاش في أخبار البلدان والجيوش وأكابر الناس**، مطبعة بردين، أنجي، ١٩١٣م، ص١٤-٤٥.

(٤١) عبد الرحمان السعدي: المصدر السابق، ص٧.

(٤٢) الحسن الوزان: المصدر السابق، ص١٦٩.

(٤٣) ابن حوقل (أبي القاسم، النصيبي): **كتاب صورة الأرض**، منشورات دار الحياة، بيروت، لبنان، ١٩٩٢م، ص٤٢.

(٤٤) الهادي المبروك الدالي: المرجع السابق، ص٣٠٩.

(٤٥) نعيم قداح: **إفريقيا الغربية في ظل الإسلام**، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، د. ت، ص٦٨.

(٤٦) الحسن الوزان: المصدر السابق، ص١٦٩.

(٤٧) ك. مادهوبانيكار: **الوثنية والإسلام: تاريخ الإمبراطورية الزنجية في غرب إفريقيا**، ترجمة وتعليق وتحقيق، أحمد فؤاد بلبع، ط٢، الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية،١٩٩٧م، ص١٢٠.

(48) le Grande Dictionnaire Historique. Tome Second. Paris. P.4.

(٤٩) جوان جوزيف: **الإسلام في ممالك وإمبراطوريات إفريقيا السوداء**، ترجمة مختار السويفي، ط١، دار الكتاب المصري، القاهرة، ١٩٨٤م، ص٨٢.

(٥٠) محمد حوتية: المرجع السابق، ص١٤. انظر: أبي عبد الله الشريف الإدريسي: **القارة الإفريقية وجزيرة الأندلس**، تحقيق، وتقديم، وتعليق، إسماعيل العربي، ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر،١٩٨٣م، ص ٤٤-٤٥.

(٥١) ك. مادهو يانيكار: المرجع السابق، ص١٠٠.

(٥٢) عبد الرحمان السعدي: المصدر السابق، ص١١.

(٥٣) الحسن الوزان: المصدر السابق، ص١٠٨.

(٥٤) عاصمة جمهورية النيجر. للمزيد انظر: إسماعيل ياغي ومحمود شاكر: **تاريخ العالم الإسلامي الحديث والمعاصر**، دار المريخ للنشر، السعودية، ١٩٩٣م. ص٢١١-٢١٧.

(٥٥) الهادي المبروك الدالي: المرجع السابق، ص٣١١.

(٥٦) الحسن الوزان: المصدر السابق، ص١٧١-١٧٢.

(٥٧) مارمول كربخال: المصدر السابق، ج٣، ص٢٠٧.

(٥٨) الهادي المبروك الدالي: المرجع السابق، ص٣١١.

(٥٩) عبد القادر زبادية: مملكة سنغاي، المرجع السابق، ص٢١٣.

(٦٠) يحي بوعزيز: **تاريخ إفريقيا الغربية الإسلامية**، المرجع السابق، ص٤٤.

(٦١) مارمول كربخال: المصدر السابق، ج٣، ص ١٧٩.

(٦٢) عبد القادر زبادية: **مملكة سنغاي**، المرجع السابق، ص٢١٤.

(٦٣) يحي بوعزيز: **طرق القوافل والأسواق التجارية بالصحراء الكبرى كما وجدها الأوربيون خلال القرن التاسع عشر**، في- مجلة الثقافة- ع٥٩- سبتمبر- أكتوبر، ١٩٨٠م، ص١٦.

(٦٤) يحي بوعزيز: **تاريخ إفريقيا الغربية الإسلامية**، المرجع السابق، ص٤٦.

(٦٥) يقع إقليم وادي سوف جنوب شرق الجزائر، وينتهي إلى العرق الشرقي الكبير، يحده من الشمال بلاد الزاب (بسكرة) والحوش وسيدي محمد بن موسى والزرائب، وبودخان ويمتد حتى جبال الأوراس، والنمامشة وإلى منطقة نقرين ومن الشرق، الحدود التونسية من نفطة ونفزاوة مرورا ببير رومان حتى غدامس، ومن الجنوب (القبلة) واحات طرابلس وغدامس وماولاها، ومن الغرب وادي ريغ (تقرت تماسين) وورقلة. انظر: ابراهيم العوامر: **الصروف في تاريخ الصحراء وسوف**، منشورات تالة، الأبيار، الجزائر،٢٠٠٧م، ص ٤١. وأيضًا:

Marc, Robert Tomas: *Sahara et Commumuauté*, presse universitaires de france, 1edition, Paris,1960. P.37.

(٦٦) عبد القادر زبادية: **مملكة سنغاي**، المرجع السابق، ص٢١٤.

(٦٧) إسماعيل العربي: **مسالك الإسلام والعربية إلى الصحراء الكبرى**، في مجلة الثقافة -العدد ٦٢- مارس- أفريل،١٩٨١، ص٤٣.

(٦٨) الهادي المبروك الدالي: المرجع السابق، ص٣١٩.

(٦٩) ابن حوقل (أبي القاسم النصيبي): المصدر السابق، ص ٩٨.

(٧٠) عبد القادر زبادية: مملكة سنغاي، المرجع السابق، ص٢٢٤.

(71) R, Mauny: *Les Siécles obscures de L'Afrique noirs*, Librairie Fayard. 1970. P.20.

(72) Bulletin de la Société de géographie commerciale de Paris1879/10 (T2)1880/10-10. P.460.

(٧٣) عبد القادر زبادية: **مملكة سنغاي**، المرجع السابق، ص٢٢٥.

(٧٤) الزبيري محمد العربي: **التجارة الخارجية لشرق الجزائر**، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ١٩٧٢م، ص ١٦٨.

(٧٥) الحسن الوزان: المصدر السابق، ص٢٥٨.

(٧٦) الهادي المبروك الدالي: المرجع السابق، ص٣٢٣.

(٧٧) عبد القادر زبادية: مملكة سنغاي، المرجع السابق، ص٢٢٥.

(٧٨) جاجو حسين: **دور غدامس التجاري مابين طرابلس والسودان الأوسط خلال (١٨٥٠-١٨٨١م)**، بحث لنيل دبلوم الدراسات المعمقة، (غير منشور)، إشراف، عبد القادر زبادية، جامعة الجزائر،١٩٨١م، ص ٩٩.

(٧٩) عبد القادر زبادية: مملكة سنغاي، المرجع السابق، ص٢٢٦.

(٨٠) حسين جاجوا: المرجع السابق، ص ٩٧-٩٨.

(٨١) الهادي المبروك الدالي: المرجع السابق، ص٣٢٢.

(٨٢) المرجع نفسه، ص٣٢٣.

(٨٣) يحي بوعزيز: **طرق القوافل والأسواق التجارية بالصحراء الكبرى كما وجدها الأوربيون خلال القرن التاسع عشر**، المرجع السابق، ص١٨-١٩.

(٨٤) عبد القادر زبادية: **مملكة سنغاي**، المرجع السابق، ص٢١٩ - ٢٢٠.

(٨٥) يحي بوعزيز: **طرق القوافل والأسواق التجارية بالصحراء الكبرى كما وجدها الأوربيون خلال القرن التاسع عشر**، المرجع السابق، ص٢١.

(٨٦) المرجع نفسه، ص٢١.

(٨٧) المرجع نفسه، ص٢١.

(٨٨) عبد القادر زبادية: **مملكة سنغاي**، المرجع السابق، ص٢٢٠-٢٢١.

(٨٩) الهادي المبروك الدالي: المرجع السابق، ص٣٢٤.

(٩٠) مارمول كربخال: ج٣، المصدر السابق، ص ٢٠٤-٢٠٥.

(٩١) الهادي المبروك الدالي: المرجع السابق، ص٣٣٣.

(٩٢) يحي بوعزيز: **طرق القوافل والأسواق التجارية بالصحراء الكبرى كما وجدها الأوربيون خلال القرن التاسع عشر**، المرجع السابق، ص٢١.

(٩٣) عبد القادر زبادية: **مملكة سنغاي**، المرجع السابق، ص٢٢٢.

(٩٤) من أشهر مؤلفاتهم نذكر ما يلي: **أحمد بابا التمبكتي**: (نيل الابتهاج بتطريز الديباج.- كفاية المحتاج لمعرفة من ليس في الديباج). **محمود كعت**: (تاريخ الفتاش في أخبار البلدان والجيوش وأكابر الناس). **عبد الرحمان السعدي**: (تاريخ السودان). عثمان دان فوديو: انظر الفصل

علمية. عالمية. مُحكّمة. ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449

الأول، ص ٥٣. محمد بللو ابن عثمان: (إنفاق الميسور.- فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور للبرتلي الولاتي).

(٩٥) عبد القادر زبادية: **مملكة سنغاي**، المرجع السابق، ص ٢١٨-٢١٩.

(٩٦) الهادي المبروك الدالي: المرجع السابق، ص٣٣٩.

(٩٧) محمد حوتية: المرجع السابق، ص ١١١.

(٩٨) يحي بوعزيز: **طرق القوافل والأسواق التجارية بالصحراء الكبرى كما وجدها الأوربيون خلال القرن التاسع عشر**، المرجع السابق، ص٢٢.

(٩٩) عبد القادر زبادية: **مملكة سنغاي**، المرجع السابق، ص ٢٠٨.

(١٠٠) الهادي المبروك الدالي: المرجع السابق، ص٣٤٠.

(١٠١) عبد القادر زبادية: **مملكة سنغاي**، المرجع السابق، ص ٢٠٨-٢٠٩.

(١٠٢) المرجع نفسه، ص٢٠٩.

(١٠٣) يحي بوعزيز: **تاريخ إفريقيا الغربية الإسلامية**، المرجع السابق، ص٥٤.

(١٠٤) الهادي المبروك الدالي: المرجع السابق، ص٣٤٢.

(١٠٥) يحي بوعزيز: **طرق القوافل والأسواق التجارية بالصحراء الكبرى كما وجدها الأوربيون خلال القرن التاسع عشر**، المرجع السابق، ص٢٢-٢٣.

(١٠٦) يحي بوعزيز: **تاريخ إفريقيا الغربية الإسلامية**، المرجع السابق، ص٥٤.

(١٠٧) ابن حوقل (النصيبي): المصدر السابق، ص٩٧.

(١٠٨) الهادي المبروك الدالي: المرجع السابق، ص٣٣٦.

(١٠٩) عبد القادر زبادية: **مملكة سنغاي**، المرجع السابق، ص ٢٠٠.

(١١٠) الهادي المبروك الدالي: المرجع السابق، ص٣٣٧.

(١١١) عبد القادر زبادية: **مملكة سنغاي**، المرجع السابق، ص ١٩٨-١٩٩.

(١١٢) يحي بوعزيز: **تاريخ إفريقيا الغربية الإسلامية**، المرجع السابق، ص٤٧.

(١١٣) يحي بوعزيز: **طرق القوافل والأسواق التجارية بالصحراء الكبرى كما وجدها الأوربيون خلال القرن التاسع عشر**، المرجع السابق، ص٢٤.

علمية. عالمية. مُحكّمة. ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449